كتاب التذكرة السعدية في الأشعار العربية للعبيدي
دراسة نقدية وصفية

د/ منذر ذيب كفافي
جامعة الإسراء عمان – الأردن

الملخّــص:

يتــنـــاول هذا البحث الحديث عن كتاب من كتب المختارات أو المجموعات الشعرية التي لم تحظ باهتمام الدارسين والباحثين بالشكل المرجو، ألا وهو كتاب "التــذكرة السعدية في الأشعار العربية للعبــيــدي".

وسيقوم البحث بدراسة هذا الكتاب دراسة نقدية وصفية في محاولة للكشف عن ماهية هذا الكتاب، وقــيــمته، وأهميته، ومنهجه، وأسس الاختيار فيه كونه يمثــل منهجاً مميزاً في الاختيار الشعري.

Abstract:

This research investigates one of "Almukhtarat" (Compilation of Poems) that researchers did not study satisfactorily and intensively.

This book is entitled "Altathkirah Al-Sa'diah fi Al-A Sh'ar Al Arabia by Al-Obeidi". The research is going to study the book critically and descriptively in an attempt to find out the nature of the book, its importance, methodology, and the basis on which the selection is carried out because the book represents a unique methodology in selecting poems.

التمهيد: الاختيار الشعري: مفهومه وأهميته

الاختيار الشعري ضرب من النقد الأدبي، يُفاضل فيه الناقد بين النصوص الشعرية، مستنداً إلى أسباب وعلل حقيقية لا وهمية، وميزاته سعة الاطلاع والذوق المدرب المصقول بالتمرس، فهو عملية نقدية متصلة بثقافة الناقد الأدبي، وصفاته، وأدواته "وحسن الاختيار وتنوعه يدلان دلالة واضحة على علمه وفضله وقديماً قال الشاعر:

قد عرفناك باختيارك إذ كا ن دليلاً على اللبيب اختياره[1]

وقالوا: "شعر الرجل قطعة من كلامه، وظنه قطعة من علمه، واختياره قطعة من عقله"[2]، وقالوا: "الإنسان لا يحتاج في الجهل إلى أكثر من ترك العلم، وفي فساد البيان أكثر من ترك التخيّر"[3].

ويمكن هنا أن نميّز بين ثلاثة أنواع من الطرق التي سلكها الرواة في تصنيف الشعر العربي في مرحلة التدوين وبعدها[4]:

1- دواوين أشعار القبائل.

2- دواوين الشعراء.

3- المختارات الشعرية أو المجموعات الشعرية.

وهذا القسم الثالث يختلف في منهجه عن القسمين الأولين "فإذا كان ديوان الشاعر يقتضي تقصي كل شعره، وكان ديوان القبيلة يقتضي ما قاله شعراؤها، فإن الأشعار المختارة لا ترتبط بهذا التقصي لشعر شاعر أو شعر قبيلة، إذ يصدر فيها جامعها ومختارها عن مبدأ أساسي وهو أن تكون قصائدها – من وجهة نظره على أقل تقدير – طرازاً عالياً من الشعر، أو مصورة للمثل الأعلى الشعري في بابها، وكذلك لم تكن الغاية فيها جمع الشعر وحصره، بل كانت في الغالب تنتخب ما هو مجموع ومدون"[5].

وتكمن أهميتها كذلك في كونها تعد مصدراً من مصادر توثيق أنساب الشعراء وأسمائهم وألقابهم، ومصدراً لحفظ الشعر العربي، إضافة إلى الأهمية الاجتماعية المتمثلة في تصوير عادات العرب وتقاليدهم، وكذلك الأهمية التاريخية الكامنة في أنها تمثل سجلاً لأيام العرب[6].

ولذلك تعد الاختيارات الشعرية من أكثر النماذج التي يتأدب عليها الناشئة، وصاحب التذكرة السعدية له مصنفات في الاختيار الأول "النزهة السعدية في الأشعار العربية" وقد نال الإعجاب، وأقبلت جماعة من المثقفين على قراءته والتمسوا آخر على غراره فكانت "التذكرة السعدية في الأشعار العربية" التي تشي بسعة اطلاع مصنفها، فاستطاع أن ينظر في حماسات الأدباء ودواوينهم، وكتب الشعر والأدب.

وسيكون الحديث حول هذا الكتاب من خلال الفصول الآتية:

الأول: التذكرة السعدية في الأشعار العربية: نظرة عامة.

الثاني: التذكرة السعدية في الأشعار العربية: الماهية والأهمية والمنهج.

الثالث: التذكرة السعدية في الأشعار العربية ومعايير الاختيار الشعري.

الفصل الأول: التذكرة السعدية في الأشعار العربية: نظرة عامة

مُصَنِّفُ التذكرة السعدية

كتاب "التذكرة السعدية في الأشعار العربية" مختارات شعرية لمصنفه محمد بن عبد الرحمن العَبيدي أو العُبيدي، وهو من رجال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي[7]. ولعل إسماعيل البغدادي الباباني (ت 1339هـ) أول من أشار إليه بقوله: التذكرة السعدية في الأشعار العربية، تأليف محمد بن عبد الرحمن بن عبد الحميد العبيدي[8]، والصواب أن اسم جده هو عبد المجيد وليس عبد الحميد، كما نص البغدادي، وقد صرح العبيدي نفسه باسمه في نهاية التذكرة بقوله: (تمَّ الكتاب على يد مؤلفه أضعف عباد الله وأحوجهم إلى عفو ربه الحميد، محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد العبيدي، أصلح الله شأنه، وصانه عمَّا شانه، بحق محمد وآله أجمعين في شوال سنة اثنتين وسبعمائة)[9]. وتبعه بروكلمان (ت 1956م) في الإشارة إلى التذكرة واسمها، واسم مؤلفها، ومكان وجودها[10]. وتبعهما مختار الدين أحمد في مقدمة تحقيقه للحماسة البصرية التي كتبها عام 1964م[11].

التـــذكرة السعدية – أصل التسمية

التـــذكرة لغة: ما تستذكر به الحاجة، والذِّكرُ الحفظُ للشيء، والاستذكار الدراسة للحفظ، وتذكر أي ذكر بعد نسيان[12].

وقد أخذت التذكرة نعتها بالسعدية نسبة إلى الشخص الذي أُلِّفت لتهدي إليه، إذ وصفه المصنف بأنَّه (سعد الحق والدنيا والدين) فعلى ما يبدو أن اسمه (سعد الدين) أو (أبو سعد) أو (أبو السعادات) أو (سعد) أو نحو ذلك، وهذا ما يستشف من قول المصنف في تقريضه لمن أهدى له التذكرة:

همام له في مرتقى المجد مصعد يلوح به العيُّوق في ثوب حامد
كريم حباه المشتري بسعوده فأصبح في الآفاق بكر عطارد
فلا زال في ظل السعادة رافلاً يحوز جميع الفضل في شخص واحد[13]

والأرجح أن (أبا سعد) هو اسم جد من ألفت له التذكرة لقول المصنف (لا زالت جدوده سعيدة، وسعوده جديدة)[14] من باب التورية، وهذا يجعلنا نرجح أن الوزير الذي ألفت له التذكرة هو الأمير الكبير الأدبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن أبي سعد ابن علي بن المنصور بن محمد بن الحسين الشيباني الآمدي المصري الحنبلي وكان معروفاً بابن الصاحب وابن التيتي، ولد بمصر سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وكان هذا الأديب مع ابن الملك المظفر بن السعيد الأرتقي صاحب ماردين نائباً للملكة ومدبراً لدولته، إلى أن ذهب رسولاً إلى الملك المنصور قلاوون صاحب مصر، فحبسه ست سنين حتى ولي ابنه الملك الأشرف فأخرجه وأنعم عليه وولاه نيابة دار العدل بقلعة الجبل، وكان عالماً فاضلاً أديباً متفنناً ذا معرفة بالحديث والتاريخ والسير واللغة، وافر العقل، مليح العبارة، حسن الحظ والنظم والنثر، جميل الهيئة له خبرة تامة بسير الملوك المتقدمين ودولهم، لا تمل مجالسته. وسمع من شمس الدين جماعة منهم الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية، والمزي، والبرزالي، والذهبي، وتوفي بمصر سنة أربع وسبعمائة، وهي السنة السابعة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر، وقيل أن فرسه جفلت به فوقع، وتعلقت رجله بالركاب فتكسرت أعضاؤه، وحمل إلى منزله، فبقي قليلاً ومات، وكان رجلاً خبيراً خالط الملوك والدول[15]. وكان وزيراً للملك المظفر بن السعيد الأرتقي ملك ماردين (لذلك سمي الصاحب)، وكان أبوه الصاحب شرف الدين إسماعيل وزيراً للملك السعيد الأرتقي، وهو من العلماء الفضلاء جمع تاريخاً لمدينة آمد، وله نظم

ونثر، وسمع الحديث ورواه وكان محدثاً فاضلاً متقناً، توفي سنة ثلاث وسبعين وستمائة[16].

وهذا كله يجعلنا نرجح أن من ألفت له التذكرة هو الصاحب ابن الصاحب محمد بن إسماعيل بن أبي سعد، ويعضد ترجيحنا قول المصنف في مقدمته (سبق مني جمع كتاب . . مطرزاً باسم من حل من المجد في الذروة الباسقة، الصاحب الأعظم المخدوم المعظم .. صاحب ديوان الممالك شرقاً وغرباً، سلطان الوزراء بعداً وقرباً، سعد الحق والدنيا والدين، عضد الملوك والسلاطين، ملجأ العلماء في العالمين، ابن الصاحب الأعظم المخدوم المعظم، العالم العادل، المؤيد المظفر أبي الفضلاء ملاذ الضعفاء، تاج الدنيا والدين، فخر الإسلام والمسلمين، غوث الخلائق أجمعين، أبقاهما الله بقاء السماكين، وأدامهما دوام الفرقدين"[17].

إلا أن هناك شك قليل، يأتي من أن الذي ألفت له التذكرة ويدعو المصنِّفُ له ولأبيه بالبقاء والدوام إذا كان هو محمد بن إسماعيل بن أبي سعد، فإن والده قد توفي سنة ثلاث وسبعين وستمائة للهجرة[18]، وهذا التاريخ قبل زمن تمام تأليف التذكرة الذي نقله المحقق عن آخر المخطوطة التي لم يكمل تحقيقها وطبعها، وقال إنه في سنة اثنتين وسبعمائة. إلا أننا نشك في دقة هذا النص الذي نقله المحقــق، لتوارد الخلط عنده في غير موضع، منها قوله في مقدمته (كما أن المؤلف كان ينص في آخر كل باب من أبوابه على أن الباب (الفلاني) تم على يد مؤلفه)[19]. وهذا الخلط بين المؤلف (المصنِّف)، والكاتب (الناسخ) ظاهر للجميع من خلال الجزء المطبوع من التذكرة، فالذي كان ينص على انتهاء الباب هو الكاتب وليس المؤلف، فهو يقول في نهاية الباب الأول "تمَّ باب الحماسة على يد كاتبه بحمد الله وحسن توفيقه"[20]، وكذا في نهاية الباب الثاني يقول: "تمَّ باب الأدب والحكم بحمد الله، وحسن توفيقه على يد كاتبه أصلح الله شأنه"[21]. لذا فإن الظنون تذهب بنا إلى أن نرجع أن تصنيف التذكرة كان في حياة والد المصنف له، وأن الذي كان في سنة (702هـ) هو اكتمال كتابتها (نسخها) على يد الناسخ، وليس هذا على الأستاذ المحقق ببعيد، ويبقى القول الفصل عند الاطلاع على المخطوطة أو ظهور تحقيق أفضل للتذكرة. وهذا الظن – إن صدق – يقود إلى أن محمد بن عبد الرحمن العبيدي ليس

بالضرورة أن يكون مصنف التذكرة وإنما هو ناسخها، وبذا قد تلحق "التذكرة السعدية" كتاب (مجموعة المعاني) في جهلنا باسم مؤلفها الحقيقي.

مصادر التذكرة السعدية

استقى صاحب التذكرة مادة مختاراته من ثلاث حماسات هي:

1- حماسة أبي تمام حبيب بن أوس الطائي (ت 231هـ)، وهي أول كتاب في المختارات الشعرية أطلق عليه صاحبه اسم الحماسة، لكون الباب الأول منه في الحماسة، وهذا من باب تسمية الكل باسم الجزء، وقد يكون أبو تمام احتذى حذو الخليل بن أحمد الفراهيدي في تسمية معجمه العين، لأن أول أبوابه باب العين[22]. وحماسة أبي تمام حماستان:

- ديوان الحماسة (الحماسة الكبرى).
- الوحشيات (الحماسة الصغرى)[23].

وتضم الحماسة الكبرى (881) حماسية (مقطعة أو قصيدة)، منها (261) مقطعة في باب الحماسة.

ولأبي تمام فضل الاهتداء إلى ابتكار مصطلح جمع ضروباً من الفنون الشعرية تحت لوائه هو مصطلح "الحماسة" الذي سبق غيره في استخدامه، وطوى تحته وصف المعارك، والفخر بالشجاعة، وذكر الفرار من الحرب، والدعوة إلى مكارم الأخلاق[24]..

2- حماسة أحمد بن فارس (ت 395هـ)، وهي المسماة (الحماسة المحدثة)، وهي من الكتب المهمة، على الرغم أننا اليوم نعرف ابن فارس بمعجميه المشهورين (مقاييس اللغة) و(المجمل في اللغة)، وكتابه (حلية الفقهاء). وتنبع أهمية الحماسة المحدثة التي حفظت التذكرة كثيرا من أشعارها أن ابن فارس "صاحب رسائل أنيقة، ومسائل في اللغة، يعالي بها الفقهاء، ومنه اقتبس الحريري صاحب المقامات ذلك الأسلوب، ووضع المسائل الفقهية في المقامة الطيبية وهي مائة مسألة، وكان مقيماً بهمذان، وعليه اشتغل بديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات"[25].

وحماسة ابن فارس اليوم مفقودة، من هنا جاءت أهمية التذكرة السعدية التي اعتمدت الحماسة المحدثة مصدراً رئيساً وحفظت كثيراً من أشعارها، إذ أشار صاحب التذكرة إلى بداية اختياراته من حماسة ابن فارس مرتين بقوله: "أنشد ابن فارس..."[26]،

و"أنشد الشيخ أبو الحسين أحمد بن فارس في حماسته"[27]، وأشار مرة إلى نهاية اختياراته من حماسة ابن فارس بقوله: "إلى هنا أنشده ابن فارس في حماسته"[28]، لذا نرجح أن المقطعات التي استقاها صاحب التذكرة من حماسة ابن فارس هي:

الباب الأول : المقطعات 86-257.

الباب الثاني : المقطعات 48-74.

الباب الثالث : المقطعات 93-120.

أي أن حوالي (224) مقطوعة من حماسة ابن فارس حفظتها التذكرة ضمن مختاراتها.

3- حماسة أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت 395هـ) المسماة الحماسة العسكرية، وهي مفقودة، ولا ذكر لها في التصانيف القديمة إلا في التذكرة السعدية (مقدمة المصنف)، ومجموعة المعاني، وبسبب قلة المعلومات المتوافرة عنها، شك بعض الباحثين في عدم الفصل بينها وبين شرح العسكري على ديوان الحماسة[29]، والصواب – والله أعلم – أنهما مصنفان مختلفان، وصنفها العسكري بعد شرحه على حماسة أبي تمام وإعجابه بعمله، ويؤكد هذا فصل صاحب التذكرة بين المصنفين[30]، ويعضده صاحب مجموعة المعاني بقوله عن بيت شعر (كذا رواه أبو هلال العسكري في كتاب الحماسة الذي جمعه)[31].

ونستطيع أن نحدد المقطعات التي اختارها صاحب التذكرة من حماسة العسكري تحديد بداية أو نهاية، فمثلاً يقول صاحب التذكرة في باب الأدب والحكم والأمثال في الحماسية رقم (75):

"قال أبو هلال الحسن بن عبد الله (العسكري) في حماسته للخليل:

وأفضل قسم الله للمرء عقلُه فليس من الخيرات شيءٌ يقاربُه

إذا أكمل الرحمن للمرء عقله فقد كملت أخلاقه وضرائبه

ويدري به في الناس قلة عقلِه وإن كرُمت أعراقه ومناسبُه"[32]

وهذه بداية اختيار صاحب التذكرة من حماسة العسكري ولا نستطيع أن نحدد نهايتها ما لم تظهر مخطوطة الحماسة العسكرية، لأن المصنف لا يحدد نهاية تخيره هنا، أما في باب النسيب، فقد حدد مصنف التذكرة نهاية المقطعات التي استقاها من حماسة أبي

هلال، إذ قال بعد تمام المقطعة رقم (218) من هذا الباب "إلى هنا أنـــشده أبو هلال العسكري في حماسته"[33]، ونستطيع أن نرجح بداية تخيره بالقطعة (121)، لأنه يقول قبلها "إلى هنا أنشده ابن فارس في حماسته"[34]. ولم يشر إلى حماسة العسكري في الباب الأول وإنما أشار إلى ابن فارس[35]

هذه أهم المصادر التي اعتمدها صاحب التذكرة السعدية في تصنيفها، بالإضافة إلى لطائف أشعار المحدثين، وطرائف قريض المتأخرين المتـــفرقة التي بثها في ثـــنايا التذكرة. يقول: "أقدمت على اختيار ما هو نفيس المعنى، بارع اللفظ والفحوى، مختار السبك، مستـــقيم الوصف، جميل المطلع، حسن المقطع، مادة للمترسل والشاعر، متكفل بشحذ الذهن، وجلاء الخاطر، من الحماسات الثلاث التي وقعت إلي، حماسة أبي تمام، حبـــيب بن أوس الطائي، وحماسة أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، وحماسة الشيخ أحمد بن فارس، رحمهم الله، مضيفاً إليها لطائف أشعار المحدثين، وطرائف قريض المتأخرين في آخر كل باب، سالكاً طريق الاختصار دون الإطناب، وأضم إليها أبواباً أخر في أصناف الشعر، لما يحتاج إليها في المكاتبات والمراسلات والمحاورات، وليست في هذه الحماسات، فجاءت هذه المنـــتخبة لطيفة المقاصد، صافية المصادر والموارد، سالمة من الألفاظ الحوشية، خالصة من العبارات الوحشية، جامعة بين البداوة ورقة الحضارة، كأنها الشجرة البرية في الصلابة، والبستـــانية في الغضارة"[36].

الفصل الثاني: التذكرة السعدية في الأشعار العربية – الماهية والأهمية والمنهج

تنتمي "التذكرة" إلى المرحلة الثانية في طرائق الاختيارات الشعرية، فإذا عددنا المرحلة الأولى متمثلة في المعلقات، والمفضليات، والأصمعيات، وجمهرة أشعار العرب، فإن الثانية هي مرحلة الحماسات، إذ دخل الاختيار مرحلة تعتمد نظاماً أكثر دقة؛ يراعي تحكيم الذوق في جزء من النص الشعري، ويكتفي بالقطعة القصيرة منه، فلا يورده كاملاً، ويراعي التبويب للمختارات وفق الأغراض أو المعاني التي تندرج تحتها. ومن أشهر هذه الحماسات:

1- حماستا أبي تمام (ت 231هـ)
2- حماسة البحتري (ت 284هـ)
3- حماسة ابن المرزبان (ت 309هـ)
4- الأشباه والنظائر للخالديين محمد وسعيد (ت الأول 380هـ و ت الثاني 391هـ)
5- حماسة ابن فارس (ت 395هـ)
6- حماسة العسكري (ت 395هـ)
7- حماسة الظرفاء للزوزني (ت 431هـ)
8- حماسة ابن الشجري (ت 542هـ)
9- حماسة الشاطبي (ت 547هـ)
10- حماسة الشنتمري (ت 476هـ)
11- حماسة الراح للمعري (ت 449هـ)
12- الحماسة المغربية للجراوي التادلي (ت 609هـ)
13- الحماسة البصرية (ت 659هـ)
14- التذكرة الفخري للإربلي (ت 692هـ)

وتندرج "التذكرة السعدية" التي صنفت في مطلع القرن الثامن الهجري (عام 702هـ) في إطار كتب الحماسات. وقد سماها بعضهم بحماسة العبيدي[37]، وسبب ذلك أنها أنسب في الدلالة على الكتاب، وأيسر في التداول، ولكننا نؤثر أن تبقى كما سماها مصنفها الأصلي، حتى لا يختلط الأمر في المستقبل على النابتة فتذهب بهم الظنون إلى أنهما مصنفان مختلفان.

وليس للتذكرة شهرة واسعة بين مصادر الشعر العربي، ومجاميع الاختيار، على الرغم من تمثيلها لمجموعة ممتازة من المختارات؛ اختيرت من عيون الشعر العربي ودرره، وتشكل غذاء أدبياً لكل شاعر أو متأدب أو باحث. ومع ذلك لم تلق ما نالته المجاميع الأخرى من اهتمام العلماء والباحثين شرحاً أو تحقيقاً، على الرغم من أنها من أجمل ما اختير من المقطعات والقصائد على غرار حماسة أبي تمام، إذ جمع مصنفها فيها

مختارات لشعراء الجاهلية والإسلام، والعهدين الأموي والعباسي، وللمتأخرين من الشعراء، ووقف بالاختيار عند نهاية عصره.

وتتبدى أهمية التذكرة في حيازتها لمجموعة مختارة من الشعر على امتداد عصوره المختلفة، ويرى البصير فيها أنفس الأشعار وأجودها مجموعة في سفر سهل الاقتناء، ميسور المراجعة، وحين يسهل الاقتناء، وتتيسر المراجعة، يسهل الرجوع في أي وقت إلى نفائس مكنونة، مما يدعم الملكة، وينمي الذوق، ويصقل الموهبة، ويشحذ القريحة، ويجلي الشاعرية.

ورتبها المصنف على أربعة عشر بابا، ويظهر ترتيبها تأثره بحماستي أبي تمام، وتصنيفه على نمطها، وإن لم يسم مصنفه حماسة وإنما سماه تذكرة[38].

ومع أن التسمية مختلفة، إلا أن المصنف حاكى أبا تمام، وحذا حذوه في جل أبواب التـــذكرة، وزاد على أبي تمام أربعة أبواب، والجدول التالي يوضح أبواب التذكرة السعدية وأرقامها، بالمقارنة مع أبواب حماستي أبي تمام، مع اختلاف في ترتيب الأبواب (انظر الجدول 1).

جدول (1)

أبواب التذكرة السعدية	أبواب حماسة أبي تمام
1- في الحماسة والافـــتخار.	1- الحماسة.
2- في الأدب[39] والحكم والأمثـــال.	2- المراثي.
3- في النسيب.	3- الأدب.
4- في المدح والاستجداء الاستعطاف والتـــقاضي.	4- النسيب.
5- في المراثي.	5- الهجاء.
6- في الهجاء.	6- الأضياف والمديح.
7- في الإخوانيات.	7- الصفات.
8- في التهاني.	8- السير والنعاس (حماسة كبرى) المشيب (وحشيات)[40].

9- في الاعـــتـــذار.	9- الملح.
10- في الصفات.	10- مذمة النساء.
11- في المعاتبات والشكاية من حوادث الزمان والصبر عليها.	
12- في الملح.	
13- في الأشياء المتـــفرقة.	
14- في الدعاء.	

والباب الأول من التذكرة هو أكبر أبواب الجزء المحقق المطبوع منها، إذ أثبت فيه المصنف اختياراته من أشعار القدماء والمحدثين في الشجاعة والإقدام، والحث على مكارم الأخلاق، وإغاثـــة الملهوف، ونصرة الجار، وذم اللؤم، وعدم التردد وترك السفه والجهل والتقاعس، ومجازاة الخير بالخير، والحث على القصد في القول والفعل، ولين المعشر، وعدم الفظاظة، والاعتدال في العواطف حباً وكرهاً . . . إلخ.

وإلحاح مصنف التذكرة على الإكثار من الحماسيات التي تحض على الشجاعة والبطولة والتضحية والإقدام على الموت، والاستهانة به، وتفضيله على حياة الذل والهوان، والحث على إدراك الثأر، والصبر في ميادين الحرب، ورباطة الجأش ورد الظلم، والدعوة إلى العلم والحلم والحزم، ورد العدوان، والذود عن حياض الأوطان، والتيقن بأن قضاء الله ماض، وأن الذي يدنو من الموت توهب له الحياة، وأن بعد العسر يسرا. هذا الإلحاح المثير للانتباه نستشف منه محاولة الشاعر حمل رسالة الأدب، التي حمل العلماء مشاعلها في القرن السابع الهجري، بوصفها أصواتاً للأمة الإسلامية التي تواجه أفواج التتر الغزاة؛ الذين اجتاحوا بغداد (سنة 656هـــ)، وباتوا يقاتلونها ملحقين بها الخسف والهوان، فكان لزاماً على الشعر أن يأخذ دوره في المجابهة، وحد محاولات الطمس والإبادة، وبلورة منحى تعليمي يوجه أبناء الأمة، مستغلاً فائدته المفعمة بالإمتاع، وجديته المدركة للواقع، وغايتها في هز المشاعر، وخدمة المثال، والسعي للحياة الكريمة.

ويظهر التناسق النسبي في أبواب التذكرة، فقد أورد المصنف في باب الحماسة (268) مقطعة وقصيدة، تعدادها (1111) بيتاً، وفي باب الأدب والحكم والأمثال (277) مقطعة وقصيدة تعدادها (840) بيتاً، وفي الجزء المطبوع من باب النسيب (275) مقطعة

وقصيدة تعدادها (839) بيتاً، وبذلك يكون مجموع القصائد في الجزء المحقق والمطبوع من التذكرة (820) مقطعة وقصيدة فيها (2790) بيتاً. وهذه المقطعات والأبيات موزعة على (483) من الشعراء الجاهلين والإسلاميين والمحدثين والمتأخرين، وبين هؤلاء عدد غير قليل من المقلين والمغمورين والمجهولين، وفيهم بعض النساء الشواعر. وكان المصنف في كثير من الأحيان لا يسمي الشاعر ويكتفي بذكر قبيلته أو يغفله تماماً.

والصفة الغالبة على أشعار التذكرة، أنها جُلُّها نتف شعرية ومقطعات، والباقي أبيات يتيمة، وقصائد غير كاملة[41]، فقد بلغ عدد النتف (378) نتفة، وعدد المقطعات (363)، بينما وصل عدد الأبيات اليتيمة (17) بيتاً، وعدد القصائد (62) قصيدة، أطوله لا تزيد على (22) بيتاً، وفيما يلي جدول يوضح تكرار الأيتام، والنتف، والمقطوعات والقصائد في أشعار "التذكرة السعدية". (انظر جدول2)

جدول (2)

	يتيم	نتفة	مقطوعة				قصيدة															
الأبيات	1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	14	16	18	19	20	21	22
تكرارها	17	378	154	121	53	35	23	14	10	1	3	2	2	1	1	1	1	1	2
المجموع	17	378	363				62												

ويتبــين من الجدول السابق أن وحدة الاختيار المعتمدة الأكثر تكراراً عنده هي النتفة، تليها مقطوعة، فالقصيدة القصيرة ذوات الأبيات القليلة العدد التي لا تتجاوز تسعة أبيات، والمنتخبة في أكثر الأحيان من قصيدة طويلة، ثم البيت اليتيم المفرد.

وبالإضافة إلى ما سبق يمكن أن نسجل الملاحظات الآتية على منهج صاحب التذكرة:

– قصر مختاراته على الشعر دون النثر.

– وصل بالاختيار إلى عصره، فقد اختار المقطوعة الآتية من باب الحماسة لمعاصره ابن لؤلؤ (بدر الدين بن يوسف بن لؤلؤ الدمشقي (ت 680هـ) أو عثمان بن سعيد المعروف بابن لؤلؤ (ن 685هـ) ويــقول فيها:

خِصَالُ العُـلى كُـلُّها من خصالي وصَوب الحيا قـطرة من شِمالي
خلقـت كما شاءت المكرماتُ بعيدَ النظير فـقـيدَ المثال
تـنـزهـني عن دنايا الأمو ر نفـسي، وتـندُبني للمعالي
فـللبأس طولُ يدي والحسامُ وللمجد والحمد جاهي ومالي[42]

– تعد التذكرة اختصاراً لحماسات أبي تمام، وابن فارس، والعسكري، ونستطيع أن نقول إنها اختيار من اختيار، وبالتالي فهي خيار من خيار، سلك مصنفها طريق الاختصار دون الإطناب؛ إذ اختصر الحماسات الثلاثة الآنفة الذكر، وأضاف إليها مختاراته من أشعار المحدثين والمتأخرين، لذلك جاءت مركزة صافية المستـقى عذبة المورد.

وقد تأثر المصنف بمنهج سابقيه، ولا نستطيع أن نجزم بتأثره منهجياً بابن فارس والعسكري، لأن حماستيهما مفقودتان اليوم، أما تأثره بمنهج أبي تمام في الحماسة فجلي من خلال نظرة فاحصة إلى (الجدول 1)، حيث ترينا تطابق وقع الحافر على الحافر في أسماء أبواب النسيب، والمراثي، والهجاء، والصفات، والملح، وتـشابه كبير مع أسماء أبواب الحماسة، والأدب و(الأضياف والمديح) مع إضافات ليست بجوهرية إلى أسمائها؛ كإضافة الافتخار إلى الحماسة، وإضافة الحكم والأمثال إلى الأدب. وإضافة الاستجداء والاستعطاف والتقاضي إلى باب المديح، وهي أغراض أو معانٍ جريئة يتضمنها المديح. إلاّ أن صاحب التذكرة انفرد عن أبي تمام في إضافة الأبواب التالية": الإخوانيات، والتهاني، والاعتذار، والمعاتبات والشكاية من حوادث الزمان والصبر عليها، والأشياء المتفرقة، والدعاء.

وهكذا فقد تشابهت التذكرة مع حماسة أبي تمام في ثمانية أبواب تقريباً، هي التي اختصر مقطعاتها وجعلها مادة رئيسة لمصنفه، وكان يشير إلى ذلك نحو قوله في تقديم المقطوعة الأولى من الباب الثاني: "أنشد أبو تمام لمسكين الدارمي:

وفِتيانِ صدقٍ لَسْتُ مُطلعَ بعضِهِمْ على سَرِّ بعضٍ غيرَ أنِّي جِمَاعُها
لِكُلِّ امرىء شِعْبٌ من القلب فارغ وموضعُ نَجْوَى لا يُرامُ اطِّلاعُها
يَظَلُّونَ شتَّى في البلاد، وَسرُّهُمْ إلى صخرةٍ أعيى الرّجالَ انصداعُها"[43]

ونستطيع أن نميز مقطعات التذكرة المستـقاة من الحماسة من خلال بدايات حماسيات ابن فارس أولاً، وبمقارنتها بمقطعات ديوان الحماسة ثانياً، وهي كالآتي:

الباب الأول : المقطوعات 1-85.

الباب الثاني : المقطوعات 1-47

الباب الثالث : المقطوعات 1-92

وتعدادها (224) مقطعة وقصيدة تــقريباً.

ومن الأمثلة التي استقاها من الحماسة مقطوعة قدمها بـــ قال آخر:

إيّاك والأمرَ الذي إن توسَّعتْ موارِدُهُ، ضاقت عليك المَصَادِرُ
فما حَسَنٌ أَنْ يَعْــذِرَ المرءُ نَفْسَهُ وليس له من سائر النّاس عاذرُ[44]

ومنها قول عبد الله بن عنمة الضبي:

إنْ تَسألوا الحقَّ نُعْطِ الحقَّ سائلَه والدِّرعُ مُــحْــقَــبَةٌ، والسّيفُ مقروبُ
وإن أبيتم، فإنَّا معــشرٌ أُنُفٌ لا نَطْعَمُ الخَسْــفَ، إنَّ السَمَّ مَشروبُ
فازجر حمارَك لا يرتَعْ بروضَــتِنا إذاً يُردُّ وقيدُ العَيْرِ مَــكْروب[45]

ونلاحظ أن المصنف لم يذكر باباً مشابهاً لباب حماستي أبي تمام (مذمة النساء) وباب (السير والنعاس) في الحماسة الكبرى، والمشيب في الوحشيات.

وتشابهت التذكرة السعدية مع حماسة البحتري (ت 284هـــ) في تناولها لموضوعات منها: الرجاء بعد الشدة، وحفظ اللسان، والحديث عن بعض العلاقات الاجتماعية، وحمل النفس على ما تكره، ومكاشفة الأعداء، والفتك بهم، وترك مداهنتهم، وركوب الموت خشية العار، والتحريض على قتل المعتدين، وهي موضوعات جاءت في التذكرة وحماسة أبي تمام في باب الحماسة والافتخار، بينما جاءت في حماسة البحتري موزعة في سبعة وعشرين عنواناً فرعياً[46]، وذلك من قبيل التفصيل في المعاني الجزئية للمعنى الشمولي الواحد.

واهتم صاحب التذكرة بالترتيب الزمني، فحاول في الباب الأول إعطاء الأولوية للمتقدم إذا اشترك في معنى ما مع المتأخرين، وكذلك قدم مختاراته من حماسة أبي تمام على مثيلاتها من حماستي ابن فارس والعسكري، مراعياً الترتيب الزمني، وجعل مختاراته من أشعار المحدثين والمتأخرين في أواخر الأبواب. فهو مثلاً في الباب الأول

أورد المقطعات (1–85) من حماسة أبي تمام، ومن (86–257) من حماسة ابن فارس، و(258–268) جعلها متفرقات من أشعار المحدثين والمتأخرين استقاها من كتب الأدب العامة. وكذلك راعى في البابين الثاني والثالث الترتيب الزمني فجعل مختارات الباب الثاني من (1–47) من حماسة أبي تمام و(48–74) من حماسة ابن فارس، و(75–277) من حماسة العسكري وأشعار المحدثين والمتأخرين. وكذا فعل في الباب الثالث، اختار من حماسات أبي تمام وابن فارس والعسكري، وأشعار المحدثين ثم المتأخرين مراعياً الترتيب الزمني.

وهكذا يمكن القول: إن منهج التذكرة فيه ملمح تاريخي، إذ بدأ مختاراته كما وصف في مقدمته؛ من أشعار المتقدمين، الجاهليين فالمخضرمين فالإسلاميين، يليهم المحدثون فالمتأخرون، إلا أنه لم يلتزم بهذه الحدية، فعلى سبيل المثال بدأ الباب الأول بالاختيار لشعراء جاهليين، فإسلاميين، فمخضرمين، ثم يراوح بين المخضرمين والإسلاميين والجاهليين، ثم يختار للمحدثين والمتأخرين، إلا أنه يختار فيما بين ذلك للجاهليين والإسلاميين؛ هاديه في المنهج ما يقتضيه الموضوع، وما يتماشى مع إنشاد أصحاب الحماسات، إلا أنه لم يلتزم المنهج التاريخي غالباً في إيراد المقطوعات مرتبة، مما يجعلنا ننظر إلى عبارة محقق التذكرة "يمكن اعتبار منهج التذكرة منهجاً تاريخياً" بأنه حكم يعوزه الدقة، ويفتقر إلى التثبت النصي.

وكأننا بالمصنف لا يلتزم المنهج التاريخي ولا يراعيه إذا تعارض ومعاييره النقدية. وقد يجوز القول: إنه يقف مع أصحاب الاتجاه التوفيقي في النقد العربي الذين وقفوا في وجه التعصب للقديم الممثل في التيار الثبوتي، ودعوا إلى إنصاف الشعر المحدث والتوفيق بينه وبين القديم، ومن أشهر التوفيقين الجاحظ، وابن قتية، وأبي تمام، والبحتري، وابن طيفور[47]. لذا فمصنف التذكرة يختار على سبيل المثال للمتنبي ثم لأبي نواس، في باب الأدب والحكم والأمثال، دون مراعاة الترتيب الزمني، ثم يختار لأبي الفتح البستي (ت 400هـ)، ثم يرجع إلى أبي نواس، وهو في ذلك كله لا يراعي إلا جودة المختارات، والانسجام في تجاورها وفق موضوعاتها الجزئية ومعانيها الفرعية؛ إذ كان يعمد في كل باب إلى تخير المقطعات المتشابهة المعاني أو المتقاربة، نحو إيراده

المقطعات 29، 30، 31، 32 في باب الحماسة، المتشابهة في ندم قائليها على حرب ذوي الأرحام وقتالهم وقتلهم[48]، أو يختار المقطعات المتعارضة المتضادة، المشتركة في الوزن والقافية، والقائمة على نقض أفكار بعضها[49]، أو يتخير في غير موضع مقطعتين في المعنى نفسه في إشارة لأخذ اللاحق من السابق[50].

وتصطبغ مختارات التذكرة السعدية بالإكثار– في بعض المواضع – من الاختيار للشاعر نفسه في الموضع نفسه من الباب الواحد، وإيراد عدد غير قليل من المقطوعات في معانٍ متعددة تندرج في إطار الغرض الكلي للباب. فنراه يجمع للمتنبي (25) مختارة متوالية في باب الحكمة[51]، ولأبي الفتح البستي (20) مقطوعة مختارة في الحكم ذوات الأغراض والمعاني والدلالات المختلفة[52]، ولأبي نواس (33) مختارة غزلية متوالية[53]، ولأبي تمام (17) متتابعة في الغزل[54]، ولأبي فراس (13) حماسية متوالية في الشجاعة ومدح سيف الدولة[55].

وانتخب صاحب التذكرة ما يصح التدليل به على شهرة بعض الشعراء ومنزلتهم، إذ اختار لنخبة من مشاهير الشعراء من العصور الأدبـــية المختلفة كحاتم الطائي، والفرزدق، وجرير، وقيس بن ذريح، والحسين بن مطير، وابن الدمينة، والبستي، وابن نباتة السعدي (ت 405هـــ) .. إلخ. وهذا يؤكد أن صاحب التذكرة توفيقي الاختيار في منهجه، وليس ثبوتياً أو تجديدياً بحتاً في تخيره لأشعار التذكرة. وهذه التوفيقية واضحة في العمل الإحصائي الذي يوضحه الجدول الآتي (جدول 3).

جدول (3)

الشعراء	أعداد الشعراء	عدد المقطعات والقصائد	النسبة المئوية للأشعار
جاهليون	62	74	%9
مخضرمون (جاهليون وإسلاميون)	26	41	%5
صدر الإسلام والدولة الأموية	117	187	%22.8
عباسيون ومتأخرون	75	268	%32.7
مغمورون	41	41	%5
مجهولو الاسم والقبـــيلة	129	129	%15.7
مجهولو الاسم معروفو الانتماء في القبائل	28	85	%10.4
النساء الشواعر	5	5	%0.6
المجموع	**483**	**820**	**%100**

وتظهر أرقام الجدول أن المصنف لم يكن من المتعصبين للقديم لقدمه، ولم يقصر اختياراته على أشعار المحدثين، وإنما وفق بينهما، وكان جل همه أن يضع اختياراته وفق معاييره النقدية في الاختيار بغض النظر عن قدمها أو حداثتها.

وكان يذكر أحياناً الدواعي والأسباب التي حدت بالشاعر إلى أن يقول ما قاله مورداً الأسباب نحو قوله: قال أعرابي قتل أخوه ابنه[56]، أو قال آخر؛ وضرب بنو عَمٍّ له مولى له اسمه حوشب[57]، أو قال رجل من بني عقيل، وحاربه بنو عمه، فقتل منهم[58]، أو قال شبيل الفزاري، وحاربه بنو أخيه فقتلهم[59]، أو قال بشر بن عوانة؛ وقد لقي أسداً[60].

الفصل الثالث: التذكرة السعدية في الأشعار العربية ومعايـــير الاختيار الشعري

تستند عملية الاختيار الشعري أو النثري إلى أسس تبنى عليها كما أُشير سابقاً. فقد اختيرت المعلقات، والمفضليات، والأصمعيات، وجمهرة أشعار العرب على أساس تعليمي؛ يتصل بكشف كنوز التراث، وتوظيفها في التأثير بالنفوس، وتوجيهها إلى تربية الناشئة، مستغلين قوة الشعر في التأثير، وسحره في التوجيه، وتعليم اللغة، وما يتصل بها من معارف تتصل بمقولة (الشعر ديوان العرب)، وأحياناً ينطلق الهدف التعليمي من نماذج نظريتي الفن للحياة، والفن للفن. واختيرت حماسة أبي تمام على أساس فني جمالي، وحماسة البحتري على أساس أخلاقي تربوي، واختار الخالديان مختارات كتابيهما "الأشباه والنظائر" على أسس جمالية واجتماعية وأخلاقية[61]. ويعني ذلك أن أصحاب الاختيارات الشعرية لم ينظروا إلى الشعر على أنه "فن مجرد من الهدف، غايته التشكيل الجمالي أو الإمتاع، وإنما ارتبط الشعر عندهم بشكل واضح بالمعايير الأخلاقية والتعليمية والنفسية، وهي معايير مرتبطة بفنية الشعر، لأن البناء المحكم مع القول الخبيث لا يلتقيان. وقد اتضح في المختارات انسجام قوي وترابط متين بين المعيار الجمالي والمعيار التعليمي، والمعيار الأخلاقي، وتبين أن الاختلاف بين مختار وآخر يكمن في تغليب معيار على آخر"[62].

ونستطيع أن نقول إن التذكرة السعدية تكشف عن وظيفة الشعر في جوانبه المختلفة؛ الجمالية الفنية، والأخلاقية الدينية، والتعليمية التربوية، وفيما يلي بيان لهذه الأسس التي انطلق منها المصنف في مختاراته:

1- الأساس الجمالي الفـــني:

ويعد هذا الأساس المعيار الأول الذي اختار صاحب التذكرة أشعار مختاراته عليه، فهو ينظر إلى جودة الشعر بالدرجة الأولى دون النظر إلى مكانة قائله، أو شهرته؛ لذا فقد اختار ما يربو على (255) مقطعة وقصيدة لـــ (198) شاعراً منهم (41) شاعراً مغموراً لا مكانة اجتماعية له، وليست له شهرة أو منزلة معروفة في تاريخ الأدب أو السياسة، ومنهم (129) شاعراً مجهول الاسم والقبيلة، ومنهم (28) شاعراً مجهول الاسم معروف القبيلة. وكان يقدم شعر مجهولي الاسم والقبـــيلة بقوله (قال آخر أو لآخر أو قال غيره أو لغيره، أو قال بعض العرب أو لبعض العرب، أو عارضه بعضهم، أو أجابه بعضهم). بينما كان يقدم أشعار مجهولي الأسماء معروفي الانتماء في القبائل بقوله: قال بعض بني فقعس، أو بعض بني أسد، أو بني مازن، أو بني جعدة، أو قال غلام من فزارة، أو رجل من عقيل، أو أسد، أو قال بعض بني عبد شمس أو بني قيس بن ثعلبة، أو رجل من بني حمير، أو قال رجل من الفزاريين، أو من ضبة أو هذيل، أو لأعرابي من بني الأسد، أو قالت امرأة من بني عامر أو من كلاب[63].

وانتخب مُصَنَّفُ التذكرة ما يصح التدليل به على أن معياره في الاختيار التفرد في الجودة، شأنه شأن كثير من متأخري النقاد والأدباء الذين تخلصوا إلى حد بعيدٍ من المعايير النقدية القديمة، وبنوا مختاراتهم على أساس فني جمالي ذوقي غالباً[64].

ورأينا عند الحديث عن منهجه، أنه توفيقي لا يتعصب لزمن على آخر، وإنما معياره الجودة الفنية حتى إننا نراه يختار لمن عرف عنه الغفلة والحمق؛ كهبنقة القيسي، الذي يضرب به المثل (أحمق من هبنقة)، طالما أن ما اختاره له يحمل مقومات الشعر الجيد في معانيه الحكيمة السامية؛ ويوافق معايير المصنف في اختيار الشعر، فيقول هبنقة القيسي:

إذا ما طلبت الأرض ثم تباعدت عليك، فضع كور المطيّة وانزل
ولا يختلط فيها، فإنّك بالغ برفق السرى فيها وكيس التنزّل
وإن كنت في دار يهينك أهلها ولم تك مكبولاً بها، فتحوّل
وإن كنت ذا مال قليل، فلا تكن لزوماً لقعر البيت ما لم تموّل[65]

ويمكننا أن نقول: إن صاحب التذكرة أقام مختاراته على أساس فني جمالي ذوقي، لا يحفل بالقديم لقدمه، ولا بالحديث لحداثته، وإنما همه الجودة الشعرية، ولذلك نراه في غير موضع من مختاراته يبدأ الاختيار في المعنى الذي يريد لشعراء محدثين قبل الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين، فيختار – مثلاً – للمؤمل بن أميل المحاربي (من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية) أبياتاً في الحلم، ثم يختار لعدي بن زيد العبادي، وكذلك يختار لمحمد بن بشير (أموي) أبياتاً في الصبر والعفاف والقناعة، ثم يختار لحسان بن ثابت. ونراه يختار لشعراء من عصور مختلفة دون التزام بالترتيب الزمني، فيختار للغزي (ت 441هـ) قبل أبي فراس (ت 357هـ)، وقبل ابن نباته السعدي(ت 405هـ)، ويختار لابن نباتة قبل الشريف الرضي (ت 406هـ)، ونحو ذلك كثير في اختياراته.

ونتلمس جمال الاختيار في التذكرة السعدية إذا احتكمنا إلى المعايير الجمالية للنقد العربي القديم المتمثلة في أصول عمود الشعر[66]. ونظرة فاحصة لهذه المعايير تقودنا إلى أن صاحب التذكرة نسج على منوال هذه الأصول أصول اختياراته، وكأنه قابل كل أصل من أصول عمود الشعر عند المرزوقي بعبارة من سبكة تماثله أو تفضي إليه، وفيما يلي موازنة لأصل عمود الشعر عند كل من المرزوقي وصاحب التذكرة السعدية؛ توضح تأثر الأخير بالأول وسيره على هدى منهجه.

أصول عمود الشعر عند المرزوقي	أصول عمود الشعر عند مُصنِّف التذكرة
1- شرف المعنى وصحته	1- نفيس المعنى
2- جزالة اللفظ واستقامته	2- بارع اللفظ والفحوى
3- الإصابة في الوصف	3- مستقيم الوصف
4- المقاربة في التشبيه	4- مادة للمترسل والشاعر
5- التحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن	5- مختار السبك
6- مناسبة المستعار منه للمستعار له	6- متكفل بشحذ الذهن، وجلاء الخاطر
7- مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما	7- جميل المطلع، حسن المقطع

وهكذا اهتم مصنف التذكرة بالمعنى السامي النفيس، والتعبير المبتكر، والصورة الجديدة، والخاطرة الرائعة، وغيرها من مواد المترسل والشاعر، وقد وردت عند المرزوقي في الأصل الرابع من أصول عمود الشعر، وهو المقاربة في التشبيه، لأنها من الأسباب المهمة في اختيار الشعر وحفظه والتمثل به، وهي أحد المواد الأساسية للشاعر والمترسل في إبداع النص الأدبي.

2- الأساسان التعليمي والأخلاقي:

وكلاهما مرتبط بالآخر، ويفضي إليه. وقد نوّه صاحب التذكرة في مقدمته إلى أن من أسس تخيره للأشعار نفاسة معانيها، والمعنى النفيس قد يحوي قيماً أخلاقية رفيعة، يفيد منها المتأدب والمتعلم الذي يرغب أن يكون شاعراً أو كاتباً.

ونظرة إلى أبواب التذكرة الأربعة عشر، تشي بمناسبتها لأغراض التعليم والتوجيه والتربية، فأشعار الإخوانيات، والتهاني والاعتذار، والمعاتبات، والأدب والحكم والأمثال الكثيرة، وما تحمله من خبرات السابقين وتجاربهم هي مادة أساس في التوجيه والتعليم.

ثم إنَّ سهولة أشعار التذكرة، وقرب معانيها – غالباً – يدعم أن التعليم من أهدافها، إذ اختارها مصنفها خالية من الصعوبة لتصل الناشئة بسهولة ويسر لتوجههم إلى المثل العليا، والقيم الرفيعة التي تهديهم إلى الخير، وتحبب إليهم سبله، وتكرههم في المقابل بالشر وتذم أهله. فالغاية المتوخاة من هذه المختارات لا تخفى جوانبها التربوية التوجيهية، ولذا جاءت أشعار التذكرة طافحة بالنماذج الأخلاقية الرفيعة، في لبوس جعلها نائية كثيراً عن كل ما يمنعها أن تكون في متناول الجميع. واختار المصنف أشعاراً كثيرة للزهاد والفقهاء ووظفها في توجيهاته، مؤكداً تقلب أحوال الدنيا، وذامّاً بهرجها، وحاملاً على الإنسان المزهو بنفسه فيها في أبيات سامية المعنى وعبارات مبتكرة وخاطرة بعيدة قريبة، وصورة جديدة رائعة، ومن ذلك تخيره لقول أبي محمد الفقيه الخوارزمي:

عجبت من مُعجَب بصورته وكان من قبلُ نُطفةً مَذِرَهْ
وفي غدٍ بعد حُسْنِ صورته يصير في الأرضِ جيفة قــذره
وهو على عُجبه ونخوته ما بين ثوبــيه يحمل العذره(67)

وفي إطار توجيهاته يختار ما يوجه الناشئة إلى أن المعول عليه في سبيل المبتغى والوصول إلى الأمجاد، هو توفيق الله وهدايته، والاستعانة بالبصيرة، واستمداد العون من التجارب، وبذل الوسع وإتعاب الجسد ليتسنى الوصول إلى الهدف، كقول أبي نواس:

لعمرك، ما الأبصار تــنفع أهلَها إذا لم يكن للمبصرين بصائرُ
وهل ينفع الخطّيُّ غير مثــقَّــف وتــظهر، إلاَّ بالصِّــقال، الجواهرُ
وكيف يُــنال المجدُ، والجسم وادع وكيف يُحاز الحمد، والوفر وافرُ

والمنحى التعليمي جلي في التذكرة السعدية في باب الحماسة كذلك، إذ فيه من المختارات المنتقاة لترسيخ قيم الشجاعة والبطولة والتضحية ما لا يخفى، وقد اختارها المصنف لأبناء الأمة لتقوية صلاتهم بماضيهم، واستنهاض قدرات المجابهة فيهم، لتحقيق الوجود، وبذلك لا تعد "التذكرة السعدية" جمعاً لقصائد شعرية، وإنما حفظاً لمجاميع شعرية كان المصنف يشعر بأثرها في تحميس الناشئة، ومن ثم كان حريصاً على الحفاظ عليها، ليواجه الجيل من خلالها محاولات التتر والمغول طمس تراث الأمة المعنوي والمادي، والعمل على حرقهما، وقتل أرواح الإبداع متمثلة في الكتب؛ مصادر الوعي والتوجيه. وكانت التذكرة ضرورية خوفاً من بتر وشائج التواصل؛ التي تمد الأمة بروح الشجاعة والمقاومة والوفاء للقيم والفضائل.

الخاتمة

تناول البحث الحديث عن أحد كتب المختارات الشعرية وهو كتاب التذكرة السعدية في الأشعار العربية للعبيدي، واتضح من خلال التمهيد أن الاختيار الشعري ضرب من النقد الأدبي، وله أهمية أدبية واجتماعية وسياسية وتعليمية.

وتبين من خلال الفصل الأول الذي خُصِّصَ للحديث عن التذكرة السعدية: نظرة عامة أن مصنفها هو محمد بن عبد الرحمن العبيدي، وأنها أخذت نعتها بالسعدية نسبة إلى الشخص الذي صُنِّفت من أجله وهو (سعد الدين) أو (أبو سعيد) .. إلخ، ولوحظ أن مادة هذا الكتاب كانت مستخلصة من ثلاث حماسات وهي: حماسة أبي تمام، وحماسة ابن فارس، وحماسة العسكري، إضافة إلى بعض لطائف الأشعار التي أضافها المصنّف إلى كتابه.

ولوحظ من خلال الفصل الثاني الذي عُيِّن للحديث عن كتاب التذكرة السعدية: من حيث الماهية والأهمية والمنهج، أن هذا الكتاب هو أحد كتب المختارات الشعرية، وتكمن أهميته في المادة المختارة وهي تمثل ثروة أدبية مهمة، وقد رتبها صاحبها على أربعة عشر باباً، متأثراً في ترتيبه هذا بترتيب أبي تمام في حماستيه، ويلاحظ الدارس أن منهجه يقوم على اختيار قصائد ومقطعات ونتف وأبيات مفردة لشعراء من عصور مختلفة من العصر الجاهلي حتى معاصري العبيدي، دون أن يكون هناك أي منهج في ترتيب الأشعار المختارة.

أما الفصل الثالث الذي تناول الحديث عن معايير الاختيار الشعري في كتاب التذكرة السعدية، فقد تبيّن أن معايير الاختيار عنده هي: المعيار الجمالي الفني، والمعيار التعليمي، والمعيار الأخلاقي، وهذان المعياران الأخيران يهتمان بتعليم الناشئة المثل العليا والقيم الرفيعة.

الهوامش:

(1) مجموعة المعاني: مؤلف مجهول، تحقيق عبد المعين الملوحي، دار طلاس، دمشق، ط1، 1988، 10.

(2) البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر ودار الجيل، بيروت، 77/1.

(3) المصدر نفسه: 86/1.

(4) انظر حول ذلك في: منابع التراث الأدبي: محمد التونجي، دار البهاء، الكويت، ط1، 1996، 7، ودراسات في الشعر الجاهلي: يوسف خليف، مكتبة غريب، القاهرة، 70.

(5) المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي: عز الدين إسماعيل، دار النهضة العربية، بيروت، 1976، 15.

(6) انظر حول هذه الأهمية في: نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب، أمجد الطرابلسي، دار الفتح، دمشق، ط5، 1972، والشعر الجاهلي في كتب المختارات الشعرية: دراسة في الشكل والمضمون، منذر كفافي، عالم الكتب الحديث، وجدارا للكتاب العالمي، الأردن، ط1، 2006، 17-21.

(7) تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، مكتبة آية الله العظمى، إيران، 1983، ج1 (الشعر)، ص120.

(8) إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، إسماعيل بن محمد البغدادي، المكتبة الإسلامية، ظهران، 1378هـ، ط3، م1، ص274.

(9) التذكرة السعدية في الأشعار العربية، تحقيق د. عبد الله الجبوري، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، 1981م، مقدمة المحقق، ص22.

(10) نقلا عن المصدر نفسه: 16.

(11) الحماسة البصرية للبصري، تحقيق مختار الدين أحمد، عالم الكتب، بيروت، مقدمة المحقق.

(12) لسان العرب: ابن منظور، داء إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1993، مادة ذكر.

(13) التذكرة السعدية، 32.

(14) المصدر نفسه، 32.

(15) شذرات الذهب في أخيار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، م3، ج6، ص11. وانظر: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (عصر سلاطين المماليك)؛ حوادث وتراجم، تأليف بدر الدين محمود العيني، تحقيق د. محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992، 360/4.

(16) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي (813–784هـ)، دار الكتب، وزارة الثـقافة، المؤسسة المصرية العامة، ج8، ص217، وانظر شذرات الذهب، م3، ج6، ص11.

(17) التذكرة السعدية، 31–32.

(18) هذا ما ذكره ابن العماد الحنبلي في ترجمته لابنه في وفيات سنة (704هـ) في شذرات الذهب.

(19) التذكرة السعدية، مقدمة المحقق، 22.

(20) المصدر نفسه، 177.

(21) المصدر نفسه، 287.

(22) شرح ديوان الحماسة، شرح المرزوقي تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون، مكتبة الجيل، بيروت، 1951، مقدمة الشارح، ص3. وخصص المرزوقي فصلا قصيرا للفظ (حماسة)، استهل به الباب الأول فقال: (الحماسة الشجاعة، والفعل منه حمس بفتح ثم كسر، ورجل أحمس، وكانت العرب تسمي قريشا حمسا لتشددهم في أحوالهم دينا ودنيا، وقال ابن دريد حمس الشر اشتد، والحمس قريش وكنانة وخزاعة تحمسوا في دينهم، وبنو حماس قبيلة من العرب وكذلك بنو حميس).

(23) سميت بالصغرى تمييزا لها عن (الحماسة الكبرى)، ولأن عدد مختاراتها دون مختارات الكبرى، أما تسميتها بالوحشيات فلعل أبا تمام قصد تشبيه ما فيها من أشعار بوحوش الفلوات الشاردة، إذ معظمها مقطعات يغلب عليها القصر، وأغلبها لشعراء مقلين أو مغمورين. انظر ذلك: الوحشيات: أبو تمام، حققه: عبد العزيز الميمني، دار المعارف، مصر، 1963، 6، ومناهج التأليف عند العلماء العرب، مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، 1973، 484.

(24) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الشروق، عمان، 1997، ص6، والمختارات الشعرية ومعاييرها النقدية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، محمد دروبي كنعان، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1983، 16.

(25) وفيات الأعيان، ابن خلكان، دار الثقافة، بيروت، ج1، ص118–119.

(26) التذكرة السعدية، 97.

(27) المصدر نفسه، 205.

(28) المصدر نفسه، 332.

(29) انظر: المصادر وطريقة البحث في اللغة والأدب، محمود السمرة وخالد الكركي وصلاح جرار، وزارة التربية، سلطنة عمان، ط1، 1986، 50.

(30) انظر التذكرة السعدية، ص32، 217، 368.

(31) مجموعة المعاني، ص13.

(32) التذكرة السعدية، 217.

(33) المصدر نفسه، 368.

(34) المصدر نفسه، 332.

(35) المصدر نفسه، 97.

(36) التذكرة السعدية، 32–33.

(37) المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، ص124.

(38) لم يكن صاحب "التذكرة السعدية" بدعا في تسمية مصنفه بالتذكرة، فقد سبقه أبو المعالي محمد بن الحسن بن حمدون البغدادي (495–562هـ)، مؤلف كتاب "التذكرة الحمدونية"، وهو من أحسن المجاميع في التاريخ والأدب والنوارد والأشعار، كذلك سبقه الصاحب بهاء الدين المنشيء الإربلي (ت 692هـ) معاصر العبيدي في كتابه "التذكرة الفخرية"؛ وهو مختارات شعرية في الوصف بضروبه المختلفة، وفيه نظرات نقدية. و "التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة" للإمام الذهبي (ت 671هـ)، و "تذكرة الحفاظ" للذهبي؛ وهو في تراجم الفقهاء والحفاظ.

(39) الأدب هنا بمعنى أخلاقي، يتضمن التأدب والتربية والتوجيه، لا بالمفهوم الحديث الذي ينصرف إلى فن القول الشعري أو النثري.

(40) حماستا أبي تمام كلاهما تكادان تتطابقان في التبويب الذي ابتدعه أبو تمام لهما، فقد جعل أشعار حماسته الكبرى في عشرة أبواب، وجعلها في الوحشيات (الحماسة الصغرى) نفسها عدا إضافته (باب المشيب) بدلا من (السير والنعاس) في الحماسة الكبرى.

(41) القصيدة الشعرية: ما بلغت سبعة أبيات فما فوق.

القطعة الشعرية أو المقطوعة أو القطعة تتراوح من ثلاثة أبيات إلى ستة أبيات.

النتفة: تطلق على البيتين من الشعر.

اليتيم: يطلق على البيت الشعري الواحد.

(42) التذكرة السعدية، 176.

(43) التذكرة السعدية، 178.

(44) المصدر نفسه، 182.

(45) المصدر نفسه، 76.

(46) اختار البحتري في حماسته قصائد ومقطوعات في أغراض مختلفة رتبها في مائة وأربعة وسبعين بابا لعدد كبير من الشعراء من الجاهلية والإسلام، وشعراء من أوائل العصر العباسي، انظر: حماسة البحتري، وضع حواشيه: محمد رضوان ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999.

(47) انظر المختارات الشعرية ومعاييرها النقدية حتى نهاية القرن الرابع عشر الهجري، ص169، وانظر مختارات المعاصرين الشعرية؛ دراسة نقدية، زين الدين العواودة، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1995، ص280.

(48) التذكرة السعدية، ص62-63.

(49) التذكرة السعدية، 171-172.

(50) المصدر نفسه، 78.

(51) المصدر نفسه ، 280-287.

(52) المصدر نفسه ، 261-266.

(53) المصدر نفسه ، 278-290.

(54) المصدر نفسه ، 372-378.

(55) المصدر نفسه ، 163-169.

(56) التذكرة السعدية، ص63.

(57) المصدر نفسه، ص68.

(58) المصدر نفسه، ص62.

(59) المصدر نفسه، ص85.

(60) المصدر نفسه، ص112.

(61) انظر أسس الاختيار وخصائصه في كتاب "الأشباه والنظائر"، آمنة أبو عبيلة (رسالة ماجستير)، جامعة اليرموك، 1997، ص69 وما بعدها.

(62) المعايير النقدية في المختارات الشعرية من القرن الخامس إلى القرن الثامن، حنان حمودة (رسالة دكتوراة)، الجامعة الأردنية، 1997، ص202.

(63) انظر مثلا: التذكرة السعدية: 27، 32، 35، 79، 108، 148، 203.

(64) نقصد بهم نقاد وأدباء القرن الخامس الهجري وما بعده.

(65) التذكرة السعدية، 208.

(66) انظر تفصيل هذه المعايير والقواعد في قضايا في النقد والشعر: يوسف بكار، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1984م، ص9-31.

(67) التذكرة السعدية، ص279.